

تمهيد:

يعد التفكير الفلسفي في جوهر اللغة من أهم مسارات فلسفة اللغة بصفة عامة والفكر التداولي على وجه الخصوص، وفي هذا تمثل جهود الفيلسوف الأمريكي بيرس علامة بارزة في التفكير الفلسفي اللغوي؛ ذلك أنه جعل من اللغة الموضوع الفعلي للمنطق ومادته، ورأى أن المنطق مادته اللغة وأن اللغة خاضعة لقانون المنطق.

لقد اهتم بيرس بفلسفة الرمز أو العلامة إقراراً بأن اللغة هي الرمز، محاولاً تأسيس علم العلامات أو علم الرموز، محاولاً الانتقال بالتواصل من اللغة إلى التواصل بالرمز، بمعنى أن بيرس وغيره من الفلاسفة عملوا على إيجاد منطق للتواصل عموماً سواء أكان لغوياً أو غير لغوي، مثل التواصل بالإيماءة أو الحركة أو الإشارة وغيرها، بله خاصية غير إنسانية تشترك فيها عديد الكائنات الحية، إذن علم العلامات علم يتجاوز السلوك اللغوي البشري إلى السلوك التواصلية في الوجود.

أ/ في سبيل علم العلامات:

أمام هذا المسلك رأى بيرس أن علم العلامات الموعود هو ارتقاء بمستوى الرمز في نظام اشتغاله، وتفكيك لمبدأ اشتغاله، إننا أمام ثلاثة مستويات لاشتغال الرمز يتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً:

المستوى الأول هو مستوى الرمز أو العلامة أو الماثول أو التمثيل أو الركيعة، إنه المستوى الذي يحدده نظام اللغة التركيبي، علاقة الكلمة بالكلمة، وهنا نقول أن العلامة لا تدل بكافة نواحيها بل لديها عنصر دلالي معين، مثال بيرس في هذا: التلة الطينية التي يصنعها يصنعها حيوان الخلد في حديقتي كعلامة على وجود حيوان الخلد. لا تلعب كل صفة من صفات تلة الخلد دوراً في التديل على وجود حيوانات الخلد. يلعب لون تلة الخلد دوراً ثانوياً، لأنه سيختلف وفقاً للتربة التي يتكون منها. وبالمثل، تختلف أحجام التلال وفقاً لحجم الخلد الذي يصنعها، لذا فإن ما هو مركزي هنا هو العلاقة السببية بين نوع الكومة الطينية في حديقتي

وحيوان الخلد : بمعنى أن حيوان الخلد يصنع التلال الطينية فإن التلال تدل على وجود حيوانات الخلد.

المستوى الثاني هو مستوى الموضوع أو المرموز، وهنا يقر بيرس أن علامة لغوية تشير إلى وقائع محددة وأشياء فعلية موجودة وليست وهمية خيالية، وفي مثال الخلد فإن العلامة هي التل الطيني والموضوع هو الخلد ، ولكي تنج تلة الخلد كعلامة يجب أن تظهر الوجود المادي للخلد، فإن فشلت في ذلك فقد فشلت في أن تكون علامة للخلد، وهذا يحتاج إلى قرائن مادية مثل وجود فضلات الخلد أو نمط معين من هبوط الأرض في الحديقة وغيرها مما يظهر الوجود المادي للخلد.

المستوى الثالث هو مستوى تأويل الرمز أو المأولة أو المفسرة، متعلق بفهم مستقبل الرمز للرمز في إنتاجه لمعنى الرمز وفهمه للرسالة اللغوية.. أي أن العلامة لا تدل على موضوعها إلا ببعض صفاتها، بالإضافة إلى ذلك تحدد العلامة المفسرة عبر تركيز فهمنا على سمات معينة للعلاقة الدلالية بين الموضوع والعلامة وهذا ما يمكننا من فهم موضوع العلامة بشكل كامل.

هذه المستويات الثلاث أسهمت في تطور الدرس التداولي، وخاصة المستوى الثالث الذي اهتم بتأويل الرمز ، أي كيفية إنتاج المعنى وتأويل الرسالة، وهذا هو جوهر التداولية أي الأثر والنتيجة التي يحدثها الخطاب في المتلقي.

مصادر المعرفة الفلسفية في نظرية اللغة البيروسية:

استقى بيرس نظريته للغة وعلم العلامات من مصادر فلسفية كثيرة وعديدة، لعل أبرزها:

كتاب كانط العقل العملي: وكان هذا الكتاب مصدر إلهام لبيرس وذلك لاهتمامه بالنتائج العملية الناتجة عن توظيف الرمز والعلامة، فهو يميل إلى الوقائع العينية، فكانت عقلانيته عقلانية واقعية تعنى بما هو عملي غايتها ترتيب منطق صحيح.

فكرة الإرادة والتمثلات عند شوبنهاور: وملخص هذه الفكرة هو عدم جدوى إقناع الناس بالعقل، وأن الألم الحاصل عند الناس يكون نتيجة سعينا إقناعهم بالعقل، وكان علينا استثارة ما يرغبون وما يريدون، ومقابل هذا في التواصل أن التأثير في السامع يكون بما يريد وبما

يرغب لا بمخاطبة العقل. فالتواصل الحق في تداوليات بيرس هو المحقق للمنفعة لا التواصل المنتمي للواقع، بيد أن السؤال المفترض هنا هو: هل المنفعة التواصلية هي منفعة آنية أم منفعة مؤجلة. هنا يرى بيرس أن المنفعة آنية لحظية لا يمكنها أن تتأجل.

نفعية جون ستيوارث ميل: يرى ميل أن الفعل الأخلاقي لا يتحقق خارج المنفعة ، أي أن أي سلوك لا يمكنه أن يدخل دائرة الأخلاق إلا بتحقيق المنفعة.

خلاصة:

ترى تداوليات بيرس أن العقل السليم هو العقل الذي يبحث في نتائج الفكر ، وأن المعيار الصحيح للفكرة هو ماتقدمه من منفعة عملية، وهنا يمكن القول أن الحقائق المطلقة فكرة تجاوزتها الفلسفة المعاصرة مع فلسفات المثالية والعقلانية المثالية، بينما تنشأ القيم من العالم الواقعي وتتغير وتتطور هذه القيم تبعاً لنتائج الخبرة التجريبية للبشر، هذه الخبرات التجريبية هي الضابط في الحكم على صحة الفكرة أو خطئها.، كما أقر بيرس أن التواصل بين الناس هو أساس مجتمعات المحادثة، وحين نعدم التواصل نعدم المحادثة.